مساحة خضراء

خواطر عن الأمطار والخير

فؤاد عبدالقادر

●.. تنزل الأمطار وتسقي الأرض والـــزرع.. ويستبشر الـناس بالأمطار ويعتبرون العام عام خير وخصب، ألا ترون أن الأرض قد اخضرت والـزرع قد أينع.. وقد أخرجت الأرض خيرها، ألا ترون العصافير قد غردت وعلت البسمة وجه البتول، في كل الدنيا.. في كل أرض .. تحت كل سماء يفرح الناس بموسم الأمطار.. ويشعرون بأن الخيرات قادمة..

حتى في المدن يفرح الـنـاس بـالمطر لأن قطراته خير ومحبة وعطاء، لأن في كل مدن الدنيا يوجد تصريف لـلأمطار التي هطلت وهـم مستعدون لها.. لا يخشون تجمعها.. ولا تصبح بالنسبة لهم مشكلة.

إلا في بلادنا، تعالوا نلقي نظرة على عواصمنا ومدننا الكبيرة إذا هطلت الأمطار.. يا داهية دقي حسب تعبير إخواننا المصريين، لا توجد أماكن لتصريفها تصبح مجرد مستنقعات وتستمر بقايا المطر أسابيع.. لا تمر بشارع إلا وتضطر للقفز والسباحة.

الـعـبـد الـفـقـيـر إذا نـزلـت رحـمـة السماء.. يستبشر بـأن العلفة.. ورقة القات سترخص.. فهل رأيـتـم الكارثة، الأمطار يعني رخص بـأسـعـار الـحـبـوب.. الفواكه.. الخضروات تـوفـر لـلـمـزروعـات وشركة في الأسواق..

من النهضة إلى الحداثة

> كل حداثة تنهل بالضرورة من الحداثة الأوروبية بوصفها المصدر والأصل، لكن أياً منها يتلوّن بلون المجتمع الخاص، الذي تنبع منه أفكار الحداثة، ويتكيف مع معطيات تاريخه ومواريثه

يتابع عبد الإله بلقزيز دراسة تجليات الحداثة الفكرية عربياً في كتابه «من النهضة إلى الحداثة»، والتي بدأها في كتابه السابق «العرب والحداثة». وينظر إليها بوصفها صورة لا تقبل الإدراك بعقل قياسيّ، يضعها في ميزان المضاهاة، انطلاقاً من مفهوم نظريّ جاهز للحداثة كحداثة ولا فهمها من دون قراءتها في تاريخيتها الخاصة، وفي نسبية معنى لا يقبل الإدراك بمعزل عن شروط تحددهُ.

ويكمن خلف هذه الصورة منطلق يعتبر أن كل حداثة تنهل بالضرورة من الحداثة الأوروبية بوصفها المصدر والأصل. لكن أياً منها يتلوّن بلون المجتمع الخاص، الذي تنبع منه أفكار الحداثة، ويتكيف مع معطيات تاريخه ومواريثه. وعند اعتبار الحداثة العربية، وسواها، هي مجرد صورة عن الحداثة الأوروبية أو نسخة منها، فإن في هذا الاعتبار تجاهل التاريخ وتخيل الأفكار الكائنة سابحة في الفضاء، عابرة للمكان والزمان والوقائع. ولا شك في أن أية حداثة فكرية لا تنشأ مكتملة في لحظة الميلاد والقيام، وإنما تتطور وتنمو في سياق تراكمي، تغتني فيه وتكتسب ملامح أوضح.

لذلك يقرأ بلقزيز الحداثة في الفكر العربي بعيداً عن فكرة المضاهاة والقياس على مثال سبق، وعن التسليم بأن «ماهيتها» كحداثة إنما مأتاها من نظرتها الحديثة بمعزل عن مطابقتها أو عدم مطابقتها للنظرة الأصل؛ ثم بعيداً عن فكرة النموذج الأوحد الذي يتجاهل سياقات التطور التاريخي وقانون التراكم في الفكر والظواهر الفكرية.

ويعتبر أن الحداثة الفكرية العربية نجمت عن اتصال فكري عربي لم ينقطع بمصادر الفكر الغربي منذ قرن ونصف القرن، تخللهُ التقليد والاقتباس والاستلهام والتأويل والحوار والنقد، أي جميع أنواع الصلة التي يمكن أن ينسجها فكر مع آخر يؤثر فيه. لكنها في الوقت ذاته نشأت كي تجيب عن أسئلة خاصة بالمجتمع العربي والثقافة العربية، أسئلة ما كان حداثيو أوروبا قبل قرن ونصف يواجهونها أو يواجهون معظمها، لأنها لا تنتمي إلى حقلهم التاريخي والثقافي.

ويرى عبد الإله بلقزيز أن ثلاثة أجيال وثلاث موجات فكرية للحداثة شهدها الفكر العربي، منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر حتى اليوم، حيث يمتد الزمن الثقافي للجيلين الأول والثاني إلى منتصف القرن العشرين، وقد خصص لها كتابه الأول السابق الذكر.

أما موضوع هذا الكتاب فهو جيل الحداثة الثالث، الذي يبدأ في عقدي الخمسينيات والستينيات ويطل على الساحة الفكرية العربية بأفكاره، وإن كان معظم ما كتبه يقع زمنياً بين منتصف الستينات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وهو الجيل الذي يتناول خطاب الحداثة عنده من خلال بعض أبرز ممثليه في العقود الأربعة الماضية، وبعض أهمّ الإشكاليات التي انشغل بالبحث والكتابة فيها.

ويسكن هذه الرؤية اعتقاد يفيد أن خطاب الحداثة في الفكر العربي المعاصر مرّ بلحظتين فكريتين وإشكاليتين، وتمتد حتى منتصف القرن العشرين، كان فيها نهضوياً، أي كان خطاباً في النهضة. وثانيهما، تبدأ منذ عقد الخمسينات من القرن الماضي، كان فيها حداثياً، أي خطاباً في الحداثة. وعليه فإن البحث يركز على الانتقال من إشكالية النهضة إلى إشكالية الحداثة في الفكر العربي، والشروط التاريخية والفكرية لذلك الانتقال.

ويحدد بلقزيز أربع سمات تسمُ الموجة الثالثة من موجات الحداثة في الفكر العربي المعاصر منذ انطلقت في خمسينات القرن العشرين الماضي، أولاهما، أن مفكريها كانوا أكثر اتصالاً بمصادر الفكر الغربي وتيارات الحداثة فيه أكثر من سابقيهم. ولم يكن السبب في ذلك أنهم تعلموا في جامعات الغرب وعاشوا فترة من الزمن في مجتمعاته، لقد قضى أحمد فارس الشدياق في منتصف القرن التاسع عشر أزيد من ربع قرن بين بريطانيا وفرنسا ومالطا، وقضى قبله الطهطاوي سنوات في باريس، وتخرج عدد من رموز جيل الحداثة الثاني في الجامعات الأوروبية، وكان في جملتهم محمد حسين هيكل وطه حسين اللذان درسا في فرنسا.

وثانيهما، غلبةُ منزع أكاديمي في التأليف ونقص في منسوب التبشرية في التفكير مقارنة بجيلي الحداثة السابقين، وخاصة بالجيل الثاني منهما. ويتصل النفس الأكاديمي في تأليف مفكري الحداثة الجدد بواقع ميلهم إلى التخصص في مجالات وموضوعات بعينها، وما يفرضه عليهم التخصص من تقاليد في البحث والكتابة أكثر صرامة مما يعرف في مجال التأليف الحر.

وثالثهما، علاقة نقدية بالمرجعين الثقافيين التراثيّ والغربيّ، اللذين تستقي منهما هذه النخبة معرفتها وتضعهما، في الوقت عينه، موضع مساءلة ونقد. ما كان جيل الحداثة الثاني، السابق زمناً أقل معرفة بالتراث العربي . الإسلامي. كان في جملته مفكرون على مستوى من المعرفة عميق ومحيط بذلك التراث في جوانبه المختلفة: الأدبية والفكرية والدينية. وليس المرء في حاجة إلى بيان وجوه ذينك العمق والإحاطة في أعمال رموز منه من جرجي زيدان إلى طه حسين ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين.

ولا كانت معرفته بالتراث الفكري الغربيّ أقل، خاصة في حالة رجل مثل طه حسين. غير أن ما ميز جيل الحداثة الثالث، فضلاً عن سعة اطلاعه على المصدرين، هو المنزع النقدي الذي وسم علاقته بالتراث وبالفكر الغربي، إذ كان أقل اطمئناناً من سابقه إلى معطيات المعرفة التراثية، وأقل انئخاذاً بالمعرفة الغربية أو استعداداً للتبشير بها. ورابع السمات هي النزعة التركيبية التي حكمت النظرة إلى مسائل المعرفة والفكر التاريخي والسياسة والاجتماع، تستدخل حقائق الميراث الثقافي والديني في رؤية حداثية تنشد التقدم وتبني له فكرياً.

ويسكن بلقزيز هاجس التساؤل عن أسباب عدم تشكل صرح الدولة الوطنية، وعن العوامل التي أفشلتها، فضلاً عن مسائل الحداثة والعلمانية والنزعة التاريخية، وتقصي ذلك في السياقات الفكرية لدى كل من أنور عبد الملك، ناصيف نصار، علي أومليل، عبد الله العروي، ياسين الحافظ، هشام جعيط. واقتضى ذلك الخوض في الإطار التاريخي لتكون النخبة الثقافية العربية، التي شهدت مراحل امتدت من ثورية الدولة الوطنية ومن ثم انهيارها وصعود الصحوة الإسلامية وفشلها.

والبداية هي ما تقدم به أنور عبد الملك في كتابه «المجتمع المصري والجيش»، الذي عرّى فيه التجربة الناصرية من أوهام الاشتراكية، وانتقد حدة الاستبداد والقمع، وسيطرة الطبقة العسكرية على مقاليد الحكم نتيجة خروج رجالات ثورة يونيو عن مشروعهم الأساس، في تطوير المجتمع المصري، من دون إنكاره ما حققه النظام الناصري من انجازات اقتصادية واجتماعية، ارتكزت على «رأسمالية الدولة» وليس على الاقتصاد الاشتراكي. وقد أفشل ذلك قيام الدولة بمقاليدها الحداثوية، حيث كانت مصر تعاني من سؤال الصيغة وليس الوجود؛ بمعنى أنها لم تشهد فراغاً سياسياً نتيجة غياب الدولة، كما هو الحال في الجزائر وليبيا، إنما عانت من سلطتها.

وفي سؤال «العلمانية والدولة الوطنية» يجري الحديث عن ما قدمه ناصيف نصار حول إشكالية الفصل بين الديني والسياسي، وإلحاحه الشديد على مدنية السلطة والحرية والديمقراطية والمواطنية؛ وتحليل أفكاره التقدمية، التي نهضت على المسار التلازمي ما بين بناء الدولة العَالمة، التي لا تتوسل الدين لإضفاء الشرعية علَى مقاليدها، وبين المعارضة والتعددية الحزبية، من دون إغفال جملة الانتقادات التي بلورها نصار حول الطائفية، وإقحام الدين في العلاقات العامة.

ومبدأ الحاكمية الذي يؤول إلى مصادرة سمات ومميزات الدولة الحديثة. أما علي أومليل فقد طرح مفاهيم تنهج نهجاً إصلاحيا إسلامياً، بدء مع رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده، واستمر مع علي عبد الرازق، وصولاً إلى حسن البنّا وسيد قطب، الذي قام بتأصيل نصوصه في إطار جاهلية العالم، وتكفير المجتمع والدولة، ليضع أساس للراديكالية الإسلامية التي رفعت شعار «الإسلام هو الحل».

إصدارات ثقافية

مجلس التعاون الخليجي

● صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «مجلس التعاون الخليجي في مثلث الوراثة والنفط والقوى الأجنبية» للدكتور يوسف خليفة اليوسف.

وجاء في تعريف الكتاب ما يلي:

يعالج المؤلِّف، بالتحليل والتوثيق والنقد، الأسباب الكامنة وراء فشل بلدان مجلس التعاون الخليجي في تحقيق التنمية والأمن، عبر أكثر من أربعة عقود. وهو يرجع هذا الفشل إلى وقوع هذه المنطقة في مثلث مفرغ، أضلاعه هي النُظُم السياسية الوراثية التي تمتلك ثروة نفطية طائلة، وتفتقد الرقابة المجتمعية، وتعتمد على القوى الأجنبية. وبالتالي، فإن الخروج من هذا المثلث يتطلب تصحيح مسار هذه البلدان، وذلك باستبدال أضلاع المثلث الحالية بثلاثة أضلاع أخرى، حيث يتم استبدال النُظَم الوراثية الحالية بنُظم فيها حرية ومشاركة ومساءلة، واستبدال الاعتماد المفرط على النفط ببناء إنسان منتج، واستبدال الوجود الأجنبي بتكامل إقليمي، وتكامل مع المحيطين العربي والإسلامي.

وفي السياق النقدي، يرى المؤلِّف أن محور المسألة برمّتها هو غياب المشاركة السياسية وما تعنيه من مساءلة ومحاسبة وتمحيص لسياسات حكومات هذه البلدان، وترشيد لقراراتها المختلفة – هذا الغياب جعل مسيرة التنمية في هذه البلدان تتصف بالتخبط والفشل، ذلك في الوقت الذي أدت فيه سياساتها الأمنية إلى مزيد من عدم الاستقرار، وإلى إضعاف النظام الإقليمي العربي الذي يعتبر صمّام أمان لأمنها وازدهارها، وما نتج من ذلك من تدخل سافر للقوى الأجنبية في شؤون المنطقة، إضافة إلى اختلال موازين القوى لصالح إسرائيل في دائرة النظام الإقليمي العربي، ولصالح إيران في منطقة الخليج العربي.

يقع الكتاب في ٤٤٦ صفحة

سبل مفتوحة

● أين يمكن تصنيف ريجيس دوبريه اليوم؟ ليس من السهل ذلك. فالمفكر الثوري السابق الذي اقترب لفترة من مواقع السلطة في عهد الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران، حيث كان مستشاره لشؤون أميركا اللاتينية، أصبح يوصف أحيانا بالفوضوي وأخرى بالديغولي، بعد أن كان قد قدّم كتابا عن سيرة حياة الجنرال، ومرات بالاشتراكي . الديمقراطي الذي تخلّى عن كل فكر ثوري. هذه التوصيفات المتنوعة أراد ريجيس دوبريه أن يأخذ مسافة عنها في كتابه الجديد الذي يحمل عنوان «سبل مفتوحة».

وفي البداية يشير دوبريه إلى أن المجتمع الفرنسي المتعدد الثقافات والذي يزعم أنه منفتح أمام جميع التيارات يبدي الكثير من الحذر حيال أولئك الذين لا ينتمون إلى أي تيار محدد وخاضع لمقاييس متفق عليها. نقرأ: «إننا نتحدث بكثير من الحماس عن التمازج وعن الجمع بين عدة صفات في كل شيء، لكن الويل لمن ترتبط فيه مثل هذه الصورة».

المادة الأساسية في هذا الكتاب هي مجموعة المقالات التي كان المؤلف قد نشرها في مجلته التي تحمل عنوان: «ميديوم». وقد اختار له عنوان: «سبل مفتوحة» وما يعادل «أشكال فك الارتباط» وجعل العقل بعيدا عن الارتهان. ويشير إلى أن اهتمامه الأول في هذا العمل ليس الكشف عن آليات عمل وسائل الإعلام ولا دراسة فن الاتصال والمعلومات، أي المواضيع التي أولاها دائما اهتمامه في مجلته. ولكن اهتمامه بالأحرى هو ب«الأشياء الصغيرة التي تصنع الأشياء الكبيرة».

المثال الذي يذكره عن الأشياء الصغيرة التي تصنع الكبيرة يجده لدى نابليون بونابرت الذي كان «يراقب عن قرب واهتمام حدوات الأحصنة. إذ بدون حديد لن يكون هناك حدوة، وبدون حدوة لن يكون هناك سلاح الفرسان، وبدون فرسان لن يكون هناك جيش، وبدون جيش لن يكون هناك انتصار، وبدون انتصار لن تكون هناك غنائم، وبدون غنائم لن تكون هناك إمبراطورية». هكذا إذن الأشياء الصغيرة «ضرورية» من أجل تحقيق الأشياء الكبيرة.

وهكذا انطلق دوبريه من ملاحظة التفاصيل التي قد تبدو بلا قيمة كبيرة كي يصل من خلالها إلى ما هو أساسي. إنه يستلهم من كل شيء: من لوحات أرقام السيارات ولباس المحامين والقضاة والبناء الذي يضم صالات البورصة والمضاربات المالية وصور باريس وهي تحت الاحتلال.

وكان دوبريه قد تعوّد أن ينشر بانتظام في مجلته زاوية تحت عنوان: «فكر هزيل». ولكنه بالتأكيد لم يكن هزيلا إلى الدرجة التي يقولها، بل لم يكن هزيلا على الإطلاق، كما تدل محتويات هذا الكتاب التي جمعتها. فكل عملية «فك ارتباط» تشتمل على دعوة للتفكير والتأمّل وولوج «سبل مفتوحة». هذا إذا لم يكن للاحتجاج على نمط الفكر السائد نمط السلوك السائد. احتجاج ضد ما يسميه المؤلف بالنظرة القصيرة والذاكرة ذات المدى المحدود ووهم «البشر الهامّين».

ويؤكد ريجيس دوبريه أن «غياب الذاكرة» يعبر في السياق الحالي عن «نزعة محافظة» وليس التمسك بها، وعندما يتحدث عن الهمّ البيئي، الايكولوجي، فإنه يركّز على فكرة مفادها أن أهمية الأرض تأتي أولا من البشرية. ويذكّرنا أنه بحجّة المحافظة على الطبيعة لا ينبغي أبدا أن «نلقي التاريخ» من فوق طواحين وسائل الإعلام.

إنه يريد في هذا الكتاب «فك ارتباطه» مع أي انتماء يؤطره في فئة أو مدرسة أو تيار أو موضة أو حتى «مشرب» فكري حسبما هو سائد في التصنيفات الجامعية. هكذا عندما ينشر أحد كتبه لا يكون من السهل تحديد وضعه على أي رفّ، أي بين كتب الفلسفة أو الدراسة أو السياسة أو علوم الاتصالات والإعلام أو العلوم الإنسانية.

الشيء الذي يُبدي ريجيس دوبريه أسفه حياله هو أنه لم يعش حياته في نهاية القرن التاسع عشر عندما كانت الكلمات «تحمل صاحبها». وهكذا يقوم في النصوص التي يحتويها هذا الكتاب بعملية نقد عنيف ضد مختلف أشكال الرياء والنفاق. كما يعلن غضبه حيال المظالم التي دفعته ذات يوم إلى أن يصبح «رجل عصابات» في غابات أميركا اللاتينية وحيث كاد أن يفقد حياته على خشبة الإعدام.

مثل هذا الغضب يظهر أثر منه في كل نص من النصوص التي يحتويها الكتاب، ومشوبا أحيانا بحس الدعابة، وذلك مهما كانت المواضيع التي يتعرّض لها وهي متنوعة تتراوح بين مشاهدة فيلم سينمائي أو زيارة معرض فني أو لقاءات كان أجراها مع شخصيات لم ينسها أبدا أو خبر هنا وهناك عن الرئيس نيكولا ساركوزي الذي يطلق عليه صفة «رئيسنا ومدير شركتنا» أو حضور ندوة ما أو عملية بيع بالمزاد العلني، أشياء صغيرة... صغيرة. لكنه يجد في كتاباته ما هو «كبير».

ومن الأفكار الثابتة التي تتكرر في هذه الكتابات تأكيد ريجيس دوبريه أن البشر يمرّون اليوم في فترة انتقالية. إذ ان عالما يتم تركه دون الدخول بشكل كامل في العالم الجديد. ويرى أنه من واجب البشر اليوم أن يبذلوا كل جهودهم كي «لا يخطئوا في الطريق».

و«الالتزام يعني التذكر». لكن ما يؤكده دوبريه هو أن التذكر مطلوب في جميع الميادين إنما شريطة أن يكون الهدف ليس «الاحتفال» بالماضي بل «التقدم» نحو المستقبل. كذلك لا تتم قراءة القدماء من أجل الهرب ولكن بغية الاقتراب من «البدء الإنساني المتجدد باستمرار». ولا يتم الاستشراء في الدفاع عن اللغة كتعبير عن موقف فقط ولكن كون اللغة هي «الإنسان نفسه».

وفي المحصلة يؤكد المؤلف سمتين أساسيتين تسودان العصر اليوم هما المال والصورة. وهكذا عندما تجمع صورة بين الرئيس نيكولا ساركوزي وصديقه جوني هاليداي، تلتفت الأنظار إلى «الثاني». ومجتمع الاستعراض أصبح سائدا في السياسة والفلسفة وكرة القدم وغيرها من المشارب.

الكتاب:سبل مفتوحة
تأليف: ريجيس دوبريه
الناشر: غاليمار باريس ٢٠١٠
الصفحات: ٢٩٢ صفحة
القطع: المتوسط